مُعوِّقاتُ السَّلامِ في العالَمِ المعاصرِ
«المخاطرُ والتَّحدِّياتُ»

عبد العزيز بن عثمان التويجري(*)

تدلُّ آياتُ القرآنِ الكريمِ على أن الأصل في التعامل مع غير المسلمين هو السَّلامُ والتفاهمُ، لا الحرب والتخاصم، وقد وردت كلمةُ السَّلام بمشتقاتها في القرآن الكريم مائةً وأربعين مرةً، بينما وردت كلمةُ الحرب بمشتقاتها ستَّ مرات فقط.

ويرى الشيخ محمود شلتوت رحمه اللهَّ تعالى أن السِّلمَ هو الحالة الأصلية التي تُهيئ للتعاون والتعارف وإشاعة الخير بين الناس عادةً، وإذا احتفظ غيرُ المسلمين بحالة السلمِ، فهم والمسلمون في نظر الإسلام إخوانٌ في الإنسانيةِ(*).

وهذا القول يمتَحُ مما أُثر عن عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي اللهَّ عنه، في رسالته إلى مالكٍ الأشترِ عندما ولَّاه مصر: «الناسُ صنفان، إما أخٌ لك في الدين، أو نظيرٌ لك في الخَلقِ»(*).

ولما كان السَّلامُ هو الأصلَ في العَلاقة بين الناسِ، فإنه الغاية المُبتغاة من جميع البشر، لا فرق بين المسلمين وبين غيرهم من أتباع الأديان الأخرى؛ فكلُّهم سواسية في الجنوح للسلمِ، وشركاءُ في بناء أسسه والحفاظ عليه، والدفع بالعوارض التي تُعوِّقُه، وإزالة الموانع التي تحول دونه؛ فالسَّلام هو المظلَّةُ التي يجتمع تحتها الناسُ؛ لِتَقِيَهم قَيظَ النزاعات، وتُجنِّبَهم زمهرير التوترات التي تُفضي بهم إلى نشوب الحروب والصراعاتِ.

فالإنسانيةُ جماعةٌ واحدةٌ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البَقَرَة: ٢١٣]، وما اختلاف اللون واللسان إلا آيةٌ من خلق اللهَّ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ(22)﴾ [الرُّوم: ٢٢]، والعمل الصالح لِما فيه الخيرُ للبشر أجمعين هو ميزانُ التفاضل بين الجميع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [البَقَرَة: ٦٢]، وتنبني على هذه القاعدة نظرةُ الإسلام إلى الناس على اختلاف ألوانهم وعقائدِهم.

فاختلافُ الناسِ في اللون واللسان هو في نظرِ الإسلام مُجرَّدُ ظاهرة تدل على عظمة قدرةِ الخالقِ، والناس سواءٌ في خلقهم من أصل واحدٍ، وأن أديانهم ترجع إلى مصدرٍ واحد أيضًا، كما أن النصوص التي تجعلُ الإيمان والعمل الصالح وحدهما معيارًا للتفاضل بين الناسِ، لها دَلالتُها المعبِّرة، إذ هي تُبدي بجلاء أن أهل الأديان لو اتبعوا التعاليم الأصيلة لأديانهم بعد استبعاد الحشو والتحريفِ، فإنه لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون(*).

فالسِّلمُ هو الأصلُ في العَلاقات بين الناس على وجه اليقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البَقَرَة: ٢٠٨] ، والإسلام تحيَّتُه سلامٌ وجنتُه دار السَّلامِ، والسَّلام اسمٌ من أسماء اللهَّ الحسنى: ﴿هُوَ اللهَُّ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحَشر: ٢٣].

والإسلامُ يُـقـيم مراقبةً ذاتيةً وموضوعيةً من داخل النفس البشريةِ ومن خارجها في المحيط الإنساني العامِّ؛ لصيانة السلم العالميِّ، عن طريق السعي إلى الإصلاح بالرأيِ، ثم محاولة الردع بالقوة: **وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** [الحُجرَات: ٩].

ولذلك فإن السلم هو الصُّـلح والمهادنة، وهو أيضًا الرجوع إلى حالة السلم بعد الحرب: **فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا** [النِّساء: ٩٠].

والحربُ مشروعةٌ بحكم الضرورة التي تبيح المحظورَ؛ لردِّ العدوان وحماية الكيان، فإذا نشبت الحربُ كان للإسلام شريعتُه التي لا تُجيزُ قتل امرأةٍ ولا صبيٍّ ولا كهلٍ ولا راهبٍ غير مقاتلٍ، ولا اتباع مدبرٍ أو الإجهاز على جريحٍ.

والإسلام يواصلُ هدايته بالقولِ والخُلُقِ حتى في مَيدانِ القتال: **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ** [التّوبَة: ٦]، فإذا بدرت بادرةٌ للرجوع عن البغي وجب الرجوعُ إلى الأصل وهو السلم: **وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** [الأنفَال: ٦١]؛ لأن السـلم هو الغايةُ في البدء والختامِ، وإبلاغ المستجير مأمنَـه، وفي زمن الحرب، هو واجبٌ شرعيٌّ لإفشاء السَّلام في الأرضِ، ولبسط ظلال الأمن في المجتمعِ.

وإذا كان المفسِّرون يذهبون إلى اعتبار القصدِ من قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** [البَقَرَة: ٢٠٨]، هو عدم الحرب، فإن بعضهم يذهب إلى أن المعنى هنا هو الطاعةُ والموادعة، أو بمعنًى آخرَ: اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر، أو: ادخلوا في الإسلام بكليته في جميع أحكامه وشرائعه، والمتأملُ في الآية يظهر له أن الربط بين الدخول في السِّلم كافةً وعدم اتباع خطوات الشيطان، هو نداءٌ من الخالق سبحانه لعدم الوقوع في النقيض للسِّلمِ، وهو كلُّ ما فيه اتباع لخطوات الشيطانِ؛ وهي الفتنةُ التي قال اللهَّ إنها أشدُّ من القتلِ؛ فعلى هذا الوجه يُمكن فهمُ هذه الآية الكريمة في ضوء الآية (٦١) من سورة الأنفال التي تُفيد أن السلم هو نقيضُ الحربِ.

و«السَّلامُ» الذي هو من أسماء اللهَّ الحسنى، مصدر بمعنى المسالمة وصَف اللهَّ تعالى به نفسه بالمصدر للمبالغة في الوصفِ، أي: ذو السَّلام، وأنه تعالى سالَمَ الخلقَ من الظلم والجَورِ.

وفي الحديث: «إنَّ اللهَّ هو السَّلامُ، ومنهُ السَّلامُ»(*).

وذلك هو المصدرُ الأصيلُ لثقافة السَّلام في الإسلامِ، التي يتشبَّع بها المسلم فيكون داعيًا للسلام في أقواله وأفعاله، وناشرًا لقيم السَّلامِ، ومساهمًا في التصدِّي للعراقيل التي تقطعُ الطريق نحو السَّلامِ، ورافضًا للعوامل التي تؤدِّي إلى إشهار الحربِ.

تلك هي المعاني العميقةُ الدَّالـةُ علىٰ السَّلام في المفهوم الإسلاميِّ، والتي يجب أن تكون حيَّـةً في الضمير المسلمِ، وهي المصدرُ الأصيلُ للمفهوم المعاصر للسلام في ظل القانون الدوليِّ.

وهذا مبحثٌ يطول الخوض فيه في هذا السياقِ، ولنا دراسات مُعمَّقةٌ حول الجوانب المتعلقة به، سبق نشرُها مترجمةً إلىٰ اللغتين الإنجليزية والفرَنسيةِ(*).

وليس من شكٍّ في أن المفهومَ المنهجيَّ للسلامِ هو الحالةُ المقابلةُ للحرب والعنفِ، وهو كذلـك سيادةُ أجواء الطمأنينة والسكينة والهدوء، عوضًا عن الخوف والقلق والاضطرابِ؛ فالسَّلام هو ضدُّ الخصامِ، والمفهوم المفارق للعنف اللفظيِّ والجسديِّ، سواءٌ أكان ذلك بين الأفراد أم الجماعات والدولِ، والشاهدُ أن الأصل في كِيانِ الإنسان هو السَّلامُ، بيـد أن القتال وُجِدَ علىٰ وجه الكرة الأرضية منذُ أن كانت الأسرة البشرية لا تتجاوز أصابعَ اليد الواحدةِ، وتطوَّر المشهدُ لاحقًا إلىٰ الصراع بين الإنسان والبيئةِ، وفقدتِ الأرضُ سلامَها(*).

كما تطوَّرَ الأمرُ إلىٰ الصراع بين الأمم والشعوبِ، وفي أحايينَ كثيرةٍ تحـوَّل إلىٰ الصراع بين الشعب الواحدِ، تحت ضغوط وإملاءات وتأثيرات من جهات أجنبية تسعىٰ إلىٰ تمزيق نسيج الوَحدةِ الوطنيةِ في ذلك الشعب، والإضرار بالسلم المجتمعيِّ.

وفي عالَمِنا المعاصر توجد معوِّقاتٌ كثيرةٌ تمنع استتباب الأمن والسَّلام، وتَحرِمُ الشعوب المضطهدة من نَيلِ حقوقها وحفظ كرامتها والتمتع بحريتها، ومن أهمِّ هذه المعوِّقات:

١- الصراعاتُ المُحتدِمةُ بين القُوىٰ الكبرىٰ التي تملك حق النقض في مجلس الأمن الدوليِّ، والتي تُقدِّمُ مصالحها وخدمة استراتيجياتها علىٰ مصالح أمن العالمِ وسلامِه، حيث تم استخدام هذا الحق مراتٍ كثيرةً لإجهاض قرارات كان من الممكن أن تُساهِمَ في بَسطِ السلم ومنع الظلم والعدوان، وحمايةِ العالمِ من مخاطر الصراع والتطرفِ.

٢- صناعةُ السِّلاحِ وتجارتُه التي تعيشُ وتنتعشُ علىٰ الحروب والصراعات والتوتراتِ، وهي صناعة وتجارة فاسدة؛ لأن محصلتها في أغلب الأحيانِ التدميرُ والقتلُ دون وجه حقٍّ، وخارج نطاق قرارات الأمم المتحدة، بل إن الدول الكبرىٰ تسعىٰ إلىٰ تجريب أسلحتها الجديدة في حروب مُفتعَلةٍ يذهب ضحيتها الأبرياءُ في مناطق مختلفة من العالمِ.

٣- التعصُّبُ الدينيُّ والعِرقيُّ الذي يولِّد التطرف العنيف والكراهية، ويكون مَحضَنًا للإرهاب ودافعًا له.

٤- أطماعُ القُوىٰ الكُبرىٰ في ثروات البلدان النامية وأسواقها، والعمل علىٰ دَعمِ حكومات فاسدة تُسهِّلُ عليها تحقيق هذه الأطماع مما يُحدِثُ الصراع والاحتراب بين أبناء هذه البلدانِ، ويجعلها دائمًا في حالة فوضى وتخلُّفٍ وتبعيةٍ.

٥- اختلالُ النظام الاقتصاديِّ العالميِّ بما يُحدِثُه من فوارقَ كبيرةٍ بين فئات المجتمعات العالميةِ، حيث يزداد الفقراء فقرًا والأغنياء غِنًى، وهو الأمرُ الذي يولِّد الغضب والتذمُّر، ويؤدِّي إلى الاضطرابات والصراعات، وهدر الجهد والوقت فيها.

في ظلِّ هذه المعوِّقات والتحوُّلات والتطوُّرات المتلاحقة في العالم اليومَ، التي تحملُ في طيَّاتِها تحدياتٍ جسامًا ومخاطرَ جمَّةً على عدة مستوياتٍ، يأتي انعقادُ مؤتمر الأزهر العالمي للسلام؛ لبحثِ التحديات التي تواجهُ السَّلام العالميَّ، ولِتَدارُسِ السبل الكفيلة بالتغلب عليها، ولوضعِ خريطة طريقٍ تُعزِّزُ أمن الأوطان والمجتمعاتِ، وتعمل على بناء القاعدة المتينة للسلم الأهليِّ، وللوئام المجتمعيِّ، وللعيش المشترك في ظل العدل الشاملِ، والأمن الوارفِ، والتوافق الجامعِ.

وإنَّ من شأنِ الدراسةِ العلميةِ لهذه التحديات والمخاطر -أيـًّا كانت طبيعتُها- أن تُثمر نتائج بالغة الأهميةِ، تُمهِّدُ السبيلَ نحو التعامل مع المضاعفات التي تَنتُجُ عنها، ووقفِ التداعيات المترتبة عليها؛ ذلكم أن المعالجات السياسية والأمنية ذات الأوجه المتعددةِ -على أهميتها البالغة وضرورتها المؤكِّدة وتأثيرها الواضح- لا تكون ذات مردوديةٍ تُغني وتُفيدُ في جميع الأحوالِ، إذا لم تستند إلى الدراسات المنهجية المتأنِّية التي يقومُ بها الخبراء والباحثـون والأكاديميون من ذَوي الدراية الواسعة والمعرفة المتخصصة المتعمقةِ، بحيث يقترنُ الفكرُ بالعمل، والنظريةُ بالتطبيق على أرضِ الواقعِ.

ولذلك فإن الضرورةَ تقتضي الربطَ بين تعزيز قِيَمِ السَّلام وترسيخ ثقافة الحوارِ؛ إبرازًا للعَلاقة المتينة المتشابكة والمتداخلة بين السَّلام وبين الحوارِ؛ إذ لا سلامَ واقعيًّا مستقرًّا ثابت الأركان، بدون حوارٍ مسئولٍ بين الشركاء في الوطن الواحد، ثم بين الفرقاء الذين ينتمون إلى الإقليم الجغرافيِّ، ثم يرتقي الحوارُ حتى يَصِلَ إلى مستوى الحوار على صعيد الأُسرةِ الإنسانية بكاملها على اختلافِ ثقافاتِها وأديانِها.

فالحوارُ بالمفهومِ العميقِ والمدلولِ الواسعِ الذي هو مدخلٌ للسلامِ لا سقفَ له ولا حدودَ ينتهي إليها، وهو الحوار بين الثقافاتِ والحضاراتِ وأتباع الأديان جميعًا، والحوار بين المواطنين في الدولة الواحدة على اختلافٍ في المشارب والمذاهب والتوجُّهات، وحوار شمال-جنوب، وحوار جنوب-جنوب، والحوار بين دول الحوض المتوسطي، الذي توجدُ فيه أصولُ الأديانِ السماويةِ الثلاثةِ.

والهدفُ المشتركُ الجامعُ بين هذه الحوارات على تعدُّد مجالاتها واختلاف الدوافع المحفِّزة لها هو بناءُ السَّلام في العقلِ، والسَّلام على الأرضِ، من أجلِ صناعة المستقبلِ الآمنِ والمزدهرِ للبشريةِ جمعاءَ.

على هذا الأساسِ النظريِّ يكونُ تعزيزُ قيم الحوار والسَّلام هو إقرارٌ للأمن، واستتبابٌ للاستقرار، وترسيخٌ للسلام، على جميع المستويات، ويكون -تبعًا لذلك- التفكيرُ في أنجع الوسائل لتعزيز هذه القيمِ هو المدخلُ إلى صناعة السَّلامِ،

بكلِّ ما في هذه العبارة من دَلالاتٍ عميقةٍ، ويكون الربطُ بين الحوار والسَّلام ربطًا محكمًا لا سبيل إلىٰ فصلِه؛ لأن الحوارَ يفتحُ المجالَ واسعًا للسلامِ، ويُفضي إليه.

أما القيمُ النبيلةُ المشتركةُ بينهما فهي القيم الأخلاقية السامية المستمدَّة أساسًا من الرسالات السماوية، ومن الثقافات الإنسانية المتراكمة علىٰ تَعاقُبِ العصور، التي هي عُصارةُ الحكمة المتوارثة، ومضامينها الإنسانية العميقة المتواترة، وهي قِيَمٌ تحتاج إلىٰ ترسيخٍ في العقول والنفوس من خلال مناهج التعليمِ، ومنابر الدعوةِ، ومنتديات الفكر والثقافةِ، ووسائلِ الإعلامِ.

إن ثقافةَ السَّلامِ هي القاعدةُ العريضةُ لثقافة الحوارِ علىٰ مُختلِفِ الأصعدةِ، النابعة من الأديان السماوية؛ فالسَّلامُ الثقافيُّ هو حَجَرُ الزاوية في السَّلام الواقعي علىٰ الأرضِ؛ لأنه سلام العقل والرُّوح والوجدان، وهو تعزيزٌ للأمن، وتوطيدٌ للتعاون، وتحقيقٌ للاندماج السياسيِّ، والازدهار الاقتصادي، والتطور الاجتماعي، في مواجهة التحديات التي تفاقمت حِدَّتُها وتَنامىٰ خطرُها؛ من تَفشِّي العنف والتشدُّد والتطرُّف، وتَصاعُدِ مَوجاتِ الكراهية والتمييز العِرقيِّ والدينيِّ والثقافيِّ، وانتشار الإرهاب بكلِّ أشكاله، إلىٰ الارتفاع الكبير في معدَّلات الهجرة القَسرية والطوعية، والاتِّجار في البشر، وتَنامي وتيرة الجريمة المنظَّمة، وتجارة المخدِّرات، وتهريب السِّلاحِ، ونشر الإلحاد والانحلالِ، ودورهما في إفسادِ الحياةِ الإنسانيَّةِ.

وتلك تحدياتٌ ومخاطرُ شديدةُ الضَّراوةِ، تُعرقِلُ جهودَ بناءِ السَّلامِ، لا سبيل إلىٰ مواجهتِها والتغلب عليها، سوىٰ بتعزيز مبادئِ السَّلامِ الشاملِ علىٰ أساسٍ من قِيَمِ الحوار الخلَّاق والمُبدِع للعَلاقات الإنسانية السَّوية بين الأمم والشعوبِ، وعلىٰ أساسٍ من الاحترامِ المتبادَلِ، ونبذ التعصبِ والتطرفِ، وإشاعةِ ثقافةِ السَّلامِ والوئامِ والتعايشِ السِّلميِّ.

ومن التحدياتِ الكبرىٰ والمخاطرِ العُظمىٰ التي يُواجهُها العالم اليوم، خصوصًا في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا -تـنَـامِي ظاهرة الإرهاب وتَفاقُمُها وانتشارُها علىٰ رُقعة واسعة، وهي ظاهرة إجرامية متوحشة مرفوضة رفضًا مطلقًا، يُجرِّمُها الإسلام تحريمًا كاملًا، وتُجرِّمُها القـوانين الدولية علىٰ وجـه الإطلاقِ.

فالإرهابُ بجميع أشكاله -وتحت أيِّ مُسمًّىٰ من مُسمَّياتِه- بعيدٌ كلَّ البعد عن الإسلام الداعي إلىٰ العدل، والإحسان، والسلم، والرحمة، واحترام الكرامة الإنسانية، وعصمة الدماء، ومنع الفساد في الأرض بكلِّ أنواعه ما ظهَرَ منه وما بَطَنَ.

ولذلك فإنَّ ربطَ الإرهابِ بالإسلامِ مِن قِبَلِ قادةٍ سياسيين ومؤسساتٍ فكريةٍ وإعلاميةٍ في الغرب -هو ازدراءٌ بالدين الحنيف، وافتراءٌ علىٰ الحقيقة وتحريفٌ لها، فالإسلام بَراءٌ من الجماعات الإرهابية، والإرهاب مُدانٌ إدانةً كاملةً، والإرهابيون مُجرِمون قتلةٌ يرفضهم المسلمون ويُدينون جرائمَهم.

وهذا هو الأمرُ الذي يؤكِّد علىٰ وجه الإطلاقِ ضرورةَ إقامة العدل والإنصاف في النظر إلىٰ الإسلام مِن قِبَلِ أولئك الذين يوجهون سهامَ الافتراء إليه، ويَصِمُونه بما ليس فيه؛ فثقافة السَّلام في الإسلام أرقىٰ من أن تكون مجرَّدَ ثقافة سياسيةٍ، أو ثقافة موسميةٍ، فهي من الرسوخ والتمكُّـن والتأصيل بحيث تقترنُ بالمقوِّمات الراسخة للشخصية المسلمةِ؛ لأن السَّلام قيمةٌ ساميةٌ من القيمِ التي جاءت بها الأديانُ جميعًا، ما لم يقع الانحرافُ عنها من لَدُن بعضٍ من المُنتسِبين إلىٰ تلك الأديان، الذين يُفشُون العداوة والكراهية بين الناسِ، ويَسعَون في الأرض بالظلمِ والعدوانِ علىٰ حقوقِ الشعوبِ.

إن القياداتِ الدينيةَ جميعًا علىٰ اختلافِ مواقعها وتعـدُّد مستوياتها، والتي هي حَمَلَةُ رسالة السَّلام -تتحمَّـل اليوم وفي كلِّ وقت مسئوليةً عظيمةً في نشر ثقافةِ السَّلامِ والتعايش الدينيِّ وقيم التسامحِ الإنسانيِّ؛ لأن لها التأثير القويَّ علىٰ أتباعها في توجيه الأفكارِ نحو الرشد العقلي والوعي الدينيِّ، اللذين يُـبعِدان الإنسان عن مَزالِقِ الانحراف والتطرف، ويُجنِّـبانه الانحدار إلىٰ مَهاوي الإضرار بنفسه وبغيره، وإلىٰ انتهاكِ حقوقِه وهدرِ كرامتِه.

فهذه القياداتُ هي صانعةُ السَّلامِ إذا سارت علىٰ هديِ الرسالاتِ السماويةِ، فإذا انحرفت عن هذا الهديِ الإلهيِّ، كانت صانعةً للحرب من حيث لا تعلمُ.

وها هو الواقعُ اليومَ يؤكِّدُ لنا أن كثيرًا من الحروب والنزاعات والصراعات الناشبة في شتَّىٰ المناطق -مصدرُها التطرف الديني، والصراع الطائفي، والفهم

المنحرف لمبادئ الدين، والتأويل الخاطئ للنصوص الدينية من طَرَفِ جماعات تزعم وتتوهَّم أنها على الحق، وأن غيرها على الباطل، وهو الأمرُ الذي يسمح لنا بالقول: إن الذين يجعلون من الدين مُبرِّرًا للعُدوان على البشر وللإفساد في الأرض، ويحسبون أنهم قادةٌ دينيون يملكون «التفويض الإلهي» لتغيير العالم بقوة السِّلاحِ -هم أعداءُ الله، وخصوم الدين، وأولياء الشر، ينبغي الحذرُ منهم، بل يجب التصدِّي لهم بشتى الأساليب المؤثرة، وبالفكر المستنير، والتنسيق المحكم، وبالتعاون الإنساني الذي يهدُف إلى تضافر الجهود الخيِّرة من أجل إقرار السَّلام في الأرضِ، ونشر قيم التسامح والتعايش والوئام بين الأممِ والشعوبِ.

وتلك هي المَهمَّةُ الرئيسَةُ للقياداتِ الدينيةِ، سواءٌ أكانت من الإسلام أم المسيحية أم اليهودية، أم غيرها من العقائد التي تَدينُ بها شعوبٌ مختلِفةٌ في العالم، لأن المفترض في هذه القيادات أن تَحمِلَ رسالة السَّلام، ولأن الدين في عمقه هو جوهرُ السَّلامِ.

إن الحربَ المُشهَرةَ اليومَ على الإسلامِ من قِبَلِ المتطرفين، سواءٌ في الخارج أو في الداخل، هي في الواقع حربٌ موجَّهةٌ إلى الأديان جميعًا، هدفُها القضاء على التديُّن وقطعُ صلة الإنسان بالعقيدة الدينيةِ، لينفسح المجالُ للدعَوات الباطلة والمبادئ المنحرفة، والفوضى العالميةِ الشاملةِ.

ولقد زاد فضيلةُ الإمامِ الأكبرِ الشيخ الدكتور أحمد الطيب هذه الحقيقة المُرَّة إيضاحًا، فقال في مؤتمر «الحرِّيَّة والمواطنة: التنوُّع والتَّكامل»: «إن الإسلاموفوبيا

إذا لم تعمل المؤسسات الدينية في الشرق والغرب معًا للتصدي لها، فإنها سوف تطلق أشرعتها نحو المسيحية واليهودية إن عاجلًا أو آجلًا، ويومها لا تنفع الحكمةُ التي تقول: «أُكِلْتُ يومَ أُكِلَ الثَّورُ الأَبيَض»، فالمتربصون بالأديان، هم جميعُهم من الملحدين والمعلنين موت الإله، ومن المروِّجين للفلسفات المادية، والآتين من أَقبيةِ النازية والشيوعية، ومن الداعين لإباحة المخدرات، وتدمير الأسرة، وإحلال نظام «الجنس الاجتماعيِّ»، وقتل الأجنة في بطون أمهاتها»(*).

وأضافَ فضيلةُ شيخِ الأزهرِ الشريفِ قائلًا في ذلك المؤتمرِ: «إن هذا هو النداءُ الذي ينمو اليوم ويتطورُ مطالبًا بأن يكون ذلك من سلطات الاتحاد الأوروبي، كلُّ هـذه الدعَوات -وغيرها كثير- قادمةٌ بقـوة، وسوف تكتسح في طريقها أوَّلَ ما تكتسحُ الأديانَ الإلهيةَ؛ لأنها في نظرهم مصدر الحروب، فالمسيحية ولَّدت الحروب الصليبية، والإسلام ينشر الإرهاب والدماء، ولا حل إلاَّ إزالة الدين من على وجه الأرضِ. وهؤلاء يَصمُتون صمت القبور عن قتلى الحروب المدنية التي أشعلها الملحدون وغُلاةُ العَلمانيين في مطلعِ القرن الماضي ومنتصفِه، ولم يكن للدِّينِ فيها ناقةٌ ولا جملٌ، مع أن أي تلميذ في مراحل التعليم الأولى لا يُعييه أن يستعرضَ قتلى المذاهب الاجتماعية الحديثة؛ ليتأكد من «أن التاريخ لم يَحْصر من ضحايا الأديان منذ أيام الجهالة إلى العصر الحاضر، عُـشـرَ معشار الضحايا الذين ضاعوا بالملايين قتلًا ونفيًا وتعذيبًا في سبيل نبوءاتٍ كاذبةٍ لم تثبت منها نبوءةٌ واحدةٌ، بل ثبت بها لا يقبل الشكَّ أنها مستحيلةٌ على التطبيق»(*).

والوقائعُ على الأرض تَشهَدُ على صحَّةِ ما ذهب إليه فضيلة الإمام الأكبر، والموجات العارمة التي تتصاعد باطِّرادٍ للكراهية، ولِمَا بات يُصطلَحُ عليه بـ «الإسلاموفوبيا»، هي من أقوى الأدلَّة على أن العالم سيشهد تطوراتٍ سلبيةً ستَزيدُ من تفاقُم المخاطر المُحدِقةِ بالسَّلامِ العالميِّ؛ لأن الإلحاد والازدراء بالأديان وإشهار محاربة اللَّادينيين لها، كلُّ ذلك يُشكِّلُ خطرًا يُواجِهُ السَّلام العالميَّ.

في كتابِه الشهيرِ: «الإسلامُ رمزُ الأملِ: القِيَمُ الأخلاقيَّةُ المشتركةُ للأديانِ»، يؤكِّد الكاتب السويسري هانس كونج(*)، على أنه لا سلامَ بين الأمم ما لم يُوجَد سلامٌ بين الأديان، والقراءة المتعمقة لفكر هانس كونغ تقودُنا إلى القول بأن الرجل يبحث في عمق الأديان باعتبارها رسائلَ للسلام، لا أدواتٍ للخصام، وعنده أنه في زمنٍ يَملِكُ فيه الإنسانُ من الوسائل التقنية الحديثة القديمة والوسطى، ينبغي على أتباع الديانات -لاسيما الديانات السماوية الثلاث- أن يفعلوا ما في وُسعِهم لتجنُّب الحروب، ونشر السَّلام، ولتحقيق ذلك لا غِنى عن إعادة القراءة والتفسير الدقيق لكلِّ رواية من الروايات التي تُشكِّلُ تقاليدها الدينية(*).

إن الواقعَ الذي تعيشُه العَلاقاتُ بين أتباعِ الأديانِ في ظلِّ الأوضاع الدولية الحالية المضطربة -يدلُّ على ضعف كبير لثقافة السَّلام في النفوس والعقول، وعلى شُيوع ثقافة التوجُّس والحذر، بل وأحيانًا ثقافة الكراهية والرفض؛ ولذلك فإن من الضروريِّ تَكاتُفَ جهود المخلصين من قادة الجماعات الدينية والمفكِّرين

وأصحاب الرأي لنشر قِيَمِ الثقافة المتسامحة التي تقبلُ الآخر وتتحاورُ معه، وتؤلِّفُ القلوب، وتُواجِهُ تيارات التعصب والكراهية والعنف والإرهاب، وأن يكون الهدفُ الأسمى لهذا العمل الصالح هو نشرَ السَّلامِ بين الناس، والتمكينَ له في الأرضِ.

ولعلَّ الجهودَ التي يقوم بها الأزهرُ الشريفُ وغيرُه من المنظمات والمؤسسات الإسلامية والدولية، كـ«مركز الملك عبد اللهَّ العالمي للحوار بين أتباع الأديان والثقافات» الذي شرع في تنفيذ برنامج «متحدون لمناهضة العنف باسم الدين»، و«المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة -إيسيسكو-» التي نفَّذت - وتنفِّذ- برامج وأنشطة في مجال تعزيز ثقافة السَّلام والحوار بين الثقافات وأتباع الأديان، ومن بينها المؤتمر الدولي حول موضوع «ثقافة الاحترام والتضامن الإنساني بين أتباع الأديان»، الذي نفَّذته بالتعاون مع المجلس البابوي للحوار، في بوينس أيرس عاصمة الأرجنتين -لعل هذه الجهودَ إذا ما قابلها تحرُّكٌ مماثلٌ من مؤسسات وهيئات دينية للأديان الأخرى أن تكون لَبِنةً مُهِمَّةً في صرح بناء السَّلام العالميِّ.

إن ثقافةَ السَّلامِ في الأديان قيمةٌ مُثلى، ونشرُها وظيفةٌ سامية، وتلك هي رسالتنا التي ننهض بها، والتي نلتقي فيها مع أتباع الأديان الذين يشاركوننا الإحساس بهذه المسئولية التاريخية في زمن صعب وظروف خطيرة.

يقولُ اللهُّ تبارك وتعالى : **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُّ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** [البقَرة: ٢١٣].

ويقولُ جلَّ مِن قائلٍ: **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** (25) [السَّجدَة: ٢٥] ، فلنعملْ على تقليصِ مساحاتِ الاختلافِ بيننا، ونوسِّعْ مساحاتِ الائتلافِ؛ فنكونَ بذلك قد استجبنا للهِ، وجعلنا الدِّينَ كلَّه للهِ: **أَلَا للهِّ الدِّينُ الْخَالِصُ** [الزُّمَر: ٣] .